تفسير سورةُ الحج
من آية (38) إلى آية (41)
اللقاء السادس

المعنى الإجمالي من آية (31) إلى آية (37):

مُستَقيمينَ للهِ على إخلاصِ العَمَلِ له، مُقبِلينَ عليه بعِبادتِه وَحْدَه وإفرادِه بالطَّاعةِ، مُعرِضينَ عَمَّا سِواه بنَبذِ الشِّركِ؛ فإنَّه مَن يُشرِكْ بالله شَيئًا فمَثَلُه -في بُعْدِه عن الهُدى، وفي هلاكِه وسُقوطِه مِن رَفيعِ الإيمانِ إلى حَضيضِ الكُفرِ، وتَخَطُّفِ الشَّياطينِ له مِن كُلِّ جانبٍ- كمَثَلِ مَن سَقَط مِنَ السَّماءِ؛ فإمَّا أن تَخطَفَه الطَّيرُ فتُقَطِّعَ أعضاءَه، وإمَّا أن تُلقيَ الرِّيحُ أوصالَه المُمَزَّقةَ في مَوضِعٍ بَعيدِ العُمقِ.

ذلك ما أمَرَ اللهُ به مِن تَوحيدِه وإخلاصِ العبادةِ له، ومَن يَمتَثِلْ أمْرَ اللهِ ويُعَظِّمْ مَعالِمَ الدِّينِ، ومنها الهدايا، وذلك باستِحسانِها واستِسْمانِها وتَكميلِها مِن كُلِّ وَجهٍ؛ فهذا التَّعظيمُ مِن أفعالِ أصحابِ القُلوبِ المتَّصِفةِ بتَقوى اللهِ وخَشيَتِه.

لكم في هذه الهَدايا منافِعُ تَنتَفِعونَ بها مِنَ الصُّوفِ واللَّبَنِ والرُّكوبِ وغيرِ ذلك ممَّا لا يَضُرُّها، إلى وَقتِ ذَبحِها عندَ بُلوغِها البَيتَ العَتيقَ.

يقولُ تعالى: ولِكُلِّ جَماعةٍ مُؤمِنةٍ سَلَفَت جعَلْنا لها مَناسِكَ مِنَ الذَّبحِ وإراقةِ الدِّماءِ؛ لِيَذكُروا اسمَ اللهِ تعالى عند ذَبحِ ما رزَقَهم مِن هذه الأنعامِ، ويَشكُروا له. فإلهُكم -أيُّها النَّاسُ- الذي يَستَحِقُّ العِبادةَ إلهٌ واحِدٌ هو اللهُ؛ فانقادوا لأمْرِه بالطَّاعةِ، واخضَعوا لحُكمِه. وبشِّر -أيُّها النبيُّ- المتواضِعينَ الخاضِعينَ لرَبِّهم بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ، وهم الذين إذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَه خَشَعَت قلوبُهم وخضَعَت؛ خوفًا مِن عِقابِه؛ والصَّابِرون على ما يقَعُ عليهم مِن أصنافِ البَلاءِ وأنواعِ الأذى، والمؤَدُّونَ الصَّلاةَ تامَّةً، وهم مع ذلك يُنفِقونَ مِمَّا رزَقَهم اللهُ تعالى.

يقولُ الله تعالى: وجعَلْنا لكم الإبِلَ الضِّخامَ مِن شَعائِرِ الدِّينِ الظَّاهِرةِ؛ لتتقَرَّبوا بها إلى اللهِ، وفي حكمِها البقرُ. لكم فيها -أيُّها المتَقَرِّبونَ- خيرٌ في الدُّنيا، وأجرٌ في الآخِرةِ، فاذكُروا اسمَ اللهِ عِندَ نَحْرِكم الإبِلَ، وهي قائِمةٌ قد صُفَّت قَوائِمُها، فإذا سقَطَت على الأرضِ جُنوبُها، فكُلوا مِن لَحمِها، وأطعِمُوا منها الفَقيرَ السَّائِلَ بتذَلُّلٍ، والمتعرِّضَ للعَطاءِ دونَ سُؤالٍ، هكذا سخَّر اللهُ البُدْنَ لكم؛ لعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على تَسخيرِها لكم.

لن ينالَ اللهَ مِن لحومِ هذه الذَّبائِحِ ولا مِن دمائِها شَيءٌ، ولكِنْ ينالُه الإخلاصُ فيها، وأن يَكونَ القَصدُ بها وَجهَ اللهِ وَحْدَه، كذلك ذلَّلَها لكم -أيُّها المتقَرِّبونَ- لتُعَظِّموا اللهَ، وتَشكُروا له على ما هَداكم

مِنَ الحَقِّ؛ فإنَّه أهلٌ لذلك. وبشِّرْ -يا مُحمَّدُ- المحسِنينَ بعبادةِ اللهِ وَحْدَه، والمحسِنينَ إلى خَلْقِه؛ بكُلِّ خَيرٍ وفَلاحٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾﴿38﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى جُملةً مِمَّا يُفعَلُ في الحَجِّ، وكان المشرِكونَ قد صَدُّوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عام الحُدَيبيَةِ، وآذَوا مَن كان بمكَّةَ مِن المؤمِنينَ- أنزل اللهُ تعالى هذه الآياتِ مُبَشِّرةً المؤمِنينَ بدَفْعِه تعالى عنهم، ومُشيرةً إلى نَصرِهم، وإذْنِه لهم في القِتالِ، وتَمكينِهم في الأرضِ برَدِّهم إلى ديارِهم، وفَتْحِ مَكَّةَ، وأنَّ عاقبةَ الأمورِ راجِعةٌ إلى اللهِ تعالى

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) أي: إنَّ اللهَ يدْفَعُ شرَّ الكُفَّارِ وكَيدَ المشرِكينَ عن عبادِه المؤمِنينَ، فيُنَجِّيهم، ويَحفَظُهم، ويَنصُرُهم. موسوعة التفسير

قال السعدي: (الله يُدافِعُ عنهم كلَّ مكروهٍ، ويَدفعُ عنهم كُلَّ شرٍّ بسَببِ إيمانِهم؛ مِن شرِّ الكفَّارِ، وشرِّ وَسوسةِ الشَّيطانِ، وشُرورِ أنفُسِهم، وسيِّئاتِ أعمالِهم، ويَحمِلُ عنهم عندَ نزولِ المكارِهِ ما لا يَتحمَّلونَ، فيُخفِّفُ عنهم غايةَ التَّخفيفِ).

قال السعدي: هذا إخبارٌ ووَعدٌ وبِشارةٌ مِن اللهِ للذين آمنوا، وكُلُّ مُؤمِنٍ له مِن هذه المدافَعةِ والفَضيلةِ بحَسَبِ إيمانِه، فمُستقِلٌّ ومُستكثِرٌ. قال ابن القيم: فبحَسَبِ إيمانِه يكونُ دِفاعُ اللهِ عنه؛ فإنْ كَمَل إيمانُه كان دَفْعُ اللهِ عنه أتمَّ دَفعٍ، وإنْ مَزَج مُزِجَ له، وإن كان مرَّةً ومرَّةً فاللهُ له مرَّةً ومرَّةً، كما قال بَعضُ السَّلَفِ: مَن أقبَلَ على اللهِ بكُلِّيَّتِه أقبل اللهُ عليه جُملةً، ومن أعرَضَ عن الله بكُلِّيَّتِه أعرضَ اللهُ عنه جملةً، ومن كان مرَّةً ومرَّةً فاللهُ له مرَّةً ومرَّةً.

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا أصبح العبد وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته»، فمن جعل الله كل همه وسار على طريقه وطاعته جعل الله من كل ضيق مخرجا، قال تعالى: «بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» (آل عمران: 76)، أما من كانت الدنيا كل همه، فإن الله سيوكله إلى نفسه، ومن ثم يدور في دوائرة مفرغة لا يخرج منها أبدًا، ولن يصل لبر أبدًا.

كما قال تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) [غافر: 51].

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مَن يَخونُ أمانَتَه فيَبخَسُ حُقوقَ اللهِ عليه، ويُخالِفُ أمْرَه ونَهْيَه، ويَخونُ حُقوقَ عِبادِه فيَنقُضُ العَهدَ الذي بينه وبينَهم، ويَجحَدُ نِعَمَ اللهِ عليه، ولا يَشكُرُه عليها. موسوعة التفسير

قال السعدي: خائن في أمانته التي حمله الله إياها، فيبخس حقوق الله عليه، ويخونها، ويخون الخلق.

(كَفُورٌ) لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان، فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقته، وسيجازيه على كفره وخيانته، ومفهوم الآية، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه.

قال الشنقيطي: ولا شكَّ أنَّ اللهَ يُبغِضُ الخائنَ مُطلقًا، والكافِرَ مُطلقًا، وقدْ أوْضَح -جلَّ وعلا- ذلك في بعضِ المواضِعِ، فقال في الخائِنِ: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ) [الأنفال: 58]، وقال في الكافِرِ: (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) [آل عمران: 32].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27]،

قال ابن كثير – رحمه الله –: (الخيانة تَعُمُّ الذنوبَ الصِّغارَ والكِبار اللاَّزِمة والمتعدِّية)، فالله تعالى يُحذِّرنا من خيانته، وخيانة رسوله -ﷺ-، وخيانات الأمانات عموماً.

الْغَدْرُ وَالْخِيَانَةُ صِفَتَانِ ذَمِيمَتَانِ خَسِيسَتَانِ، لَا يَتَّصِفُ بِهِمَا إِلَّا أَحْقَرُ النَّاسِ وَأَضْعَفُهُمْ وَأَذَلُّهُمْ، فَإِذَا عَجَزَ عَنْ مُوَاجَهَةِ خُصُومِهِ غَدَرَ بِهِمْ فِي الْخَفَاءِ، وَطَعَنَهُمْ مِنَ الْخَلْفِ، وَخَاتَلَهُمْ وَهُمْ يَأْمَنُونَهُ، كَمَا هُوَ فِعْلُ الْمُنَافِقِينَ عَبْرَ الْأَزْمَانِ ، فالخيانة من صفات المنافقين، قال النبيُّ -ﷺ-: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» رواه البخاري.

والخيانة من صفاتِ اليهود وسماتِهم التي لا تكاد تُفارقهم على مدار التاريخ، ولا يَسْلم من ذلك إلاَّ القليل منهم قال -عز وجل-:﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 13]

والخيانة جريمةٌ كبيرة، وعقوبتها شديدة، وكُلُّ مَنْ أُسْنِدَ إليه أمرٌ من أمور المسلمين، ولم يقم به، ولم يُؤدِّه على الوجه المطلوب – مع قُدرته – فهو خائنٌ غادر؛ لقول النبيّ -ﷺ-: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ» رواه مسلم.

قال الذهبي – رحمه الله –: (الخيانة قَبِيحةٌ في كلِّ شيءٍ، وبعضها شرٌّ من بعض، وليس مَنْ خانك في فَلْسٍ كمَنْ خانك في أهلك ومالِك، وارتكب العظائِم).

وأمر النبيُّ -ﷺ-بأداء الأمانة، وحذَّر من الخيانة، قال-ﷺ-: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» صحيح – رواه أبو داود والترمذي. فلا تُقابَل خيانةُ مَنْ خانَ بخيانةٍ مِثْلِها، فالخيانة لا تُباح فيها العقوبةُ بالمِثل.

والمؤمن مَفطورٌ على الأمانة وسلامةِ الخُلُق؛ إذْ لا تجتمع فيه صِفَتا الخيانةِ والأمانةِ جميعاً؛ لقول النبيّ -ﷺ-: «لاَ يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَالْكُفْرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ، وَلاَ يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا، وَلاَ تَجْتَمِعُ الْخِيَانَةُ وَالأَمَانَةُ جَمِيعًا» حسن – رواه أحمد في "المسند".

والخائن تُردُّ شهادتُه ولا تُقبل؛ تعزيراً له، وتنفيراً للناس من هذا الخُلُق البغيض، عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -؛ أنَّ النبيَّ -ﷺ-: «رَدَّ شَهَادَةَ الْخَائِنِ وَالْخَائِنَةِ» حسن - رواه أبو داود. وهذه العقوبة في الدنيا، لا تَرفَعُ عقوبةَ الخائنِ عند الله تعالى في الآخرة.

وحذَّر النبيُّ -ﷺ- من الخيانة، وتوعَّد صاحِبَها بالنار؛ كما في قوله-ﷺ-: «أَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ - وذَكَرَ منهم: الْخَائِنُ الَّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ إِلاَّ خَانَهُ، وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاَّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ» رواه مسلم.

وأرشدنا الله إلى المسْلَك في التعامل مع مَنْ لا ثِقَةَ بعهودهم وأمانتهم؛ مِنَ الذين يُخشى منهم نَقْضَها عندما تَسْنَح لهم الفرصة، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58]، فمتى بدت بوادِرُ الخيانة ونقض العهد، فليقطع عليهم طريقَ الخيانة قبل وقوعه، فيرد عليهم عهدَهم، ويُعلَمون بذلك.

وقد استعاذ النبيُّ -ﷺ- من الخيانة؛ لأنها أسوأ ما يُبطِنُه الإنسان، فكان من دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ؛ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ» رواه أبو داود.

[التحذير من الخيانة (خطبة) د. محمود بن أحمد الدوسري]

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾﴿39﴾

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) أي: أَذِنَ اللهُ للمُؤمِنينَ في قِتالِ الكُفَّارِ الذين يُقاتِلونَهم؛ وذلك بسَبَبِ ظُلْمِهم لهم، بمُحارَبَتِهم في دِينِهم وأذِيَّتِهم، وإخراجِهم مِن ديارِهم. موسوعة التفسير

قال الشنقيطي: عن الجهاد (فإنَّه أمرٌ شاقٌّ على النُّفوسِ؛ لِما فيه من تعريضِها لأسبابِ الموتِ، ومع تعريضِ النُّفوسِ فيه لأعظَمِ أسبابِ الموتِ فإنَّه يُنفَقُ فيه المالُ أيضًا، كما قال تعالى: وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ الصف: 11، قالوا: ولَمَّا كان الجِهادُ فيه هذا مِن المشَقَّةِ، وأراد اللهُ تَشريعَه، شَرَعه تدريجًا.

وقال ابنُ تيميَّةَ: (أوَّلُ آيةٍ نَزَلت في القتالِ قَولُه تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [الحج 39]، فأذِنَ اللهُ لهم أوَّلًا فيه، ثمَّ كُتِبَ عليهم ثانيًا فقال: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) [البقرة 216]).

(وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) أي: وإنَّ اللهَ على نَصرِ المؤمِنينَ على أعدائِهم لقديرٌ، ولو بغيرِ قِتالٍ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ فليَسْتنصروه، وليَسْتَعينوا به).

قولُه تعالى: وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

قال الشنقيطي: يُشيرُ إلى مَعنيَينِ: أحدُهما: أنَّ فيه الإشارةَ إلى وعْدِه للنبيِّ وأصحابِه بالنَّصرِ على أعدائِهم، كما قال قَبْلَه قريبًا: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) [الحج: 38]

والمعنى الثاني: أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَنصُرَ المسلِمينَ على الكافِرينَ مِن غَيرِ قِتالٍ؛ لقُدرتِه على إهلاكِهم بما شاءَ، ونُصرةِ المسلِمينَ عليهم بإهلاكِه إيَّاهم، ولكنَّه شرَع الجِهادَ لحِكَمٍ؛ منها: اختبارُ الصادِقِ في إيمانِه، وغيرِ الصادِقِ فيه. ومنها: تَسهيلُ نَيلِ فَضلِ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ بقَتْلِ الكُفَّارِ لشُهداءِ المسلِمينَ، ولولا ذلك لَمَا حصَّلَ أحدٌ فضْلَ الشهادةِ في سَبيلِ اللهِ، إلى غيرِ ذلك.

كما قال الله تعالى: (ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) [محمد: 4]

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾﴿40﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ المؤمنينَ إنما أُذِن لهم في القتالِ لأجْلِ أنَّهم ظُلِموا؛ بيَّن تعالى ظُلْمَهم لهم بهذينِ الوجهينِ: أحدُهما: أنَّهم أخرجوهم من ديارِهم، والثاني: أنَّهم أخرجوهم بسببِ أنَّهم قالوا: رَبُّنَا اللَّهُ، فقال:

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) أي: الذين أخرَجَهم الكُفَّارُ ظُلْمًا مِن دِيارِهم بغيرِ حَقٍّ يُوجِبُ ذلك، وما كان لهم ذَنبٌ يَنقِم عليهم أعداؤُهم بسَبَبِه إلَّا أنَّهم قالوا ربُّنا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له! موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ) [الممتحنة: 1]

قال البقاعي: فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن أخلَصَ لله، صوَّبَ النَّاسُ إليه سِهامَ مَكرِهم، ولم يَدَعوا في أذاهُ شَيئًا مِن جُهدِهم.

قال السعدي: يدُلُّ على حِكمةِ الجِهادِ، وأنَّ المقصودَ منه إقامةُ دِينِ اللهِ، وذَبُّ الكُفَّارِ المؤذِينَ للمُؤمِنينَ، البادِئينَ لهم بالاعتِداءِ، عن ظُلمِهم واعتِدائِهم- والتمَكُّنُ مِن عِبادةِ الله، وإقامةُ الشَّرائعِ الظَّاهِرةِ.

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ) أي: ولولا كَفُّ اللهِ المشرِكينَ بالمجاهِدينَ الموحِّدينَ، وشَرْعُه جهادَهم، لهَدَّمَ المشرِكونَ مَواضِعَ العِبادةِ التي اتُّخِذَت قبْلَ الإسلامِ مِن أتباعِ الأديانِ السَّماويَّةِ قبْلَ تَحريفِها وتَبديلِها، فأذِنَ للمُسلِمينَ بالقِتالِ كما أذِنَ لأُمَمِ التَّوحيدِ مِن قَبلِهم؛ لكيلا يطغَى عليهم المشرِكونَ، ولولا ذلك لهَدَّموا المعابِدَ الصَّغيرةَ التي للرُّهبانِ. موسوعة التفسير

❁صَوَامِعُ: أي: مَنازِلُ الرُّهبانِ.

كما قال تعالى: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) [البقرة: 251].

(وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا) أي: ولهَدَّمَ المشرِكونَ معابِدَ كَبيرةً للنَّصارى، وكنائِسَ لليَهودِ، ومساجِدَ للمُسلِمينَ، يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كَثيرًا. موسوعة التفسير

❁وَبِيَعٌ: أي: كنائِسُ النَّصارى، وَصَلَوَاتٌ: أي: كَنائِسُ اليَهودِ.

قال ابن جرير: الضَّميرُ في فِيهَا يعودُ على أقرَبِ مذكورٍ، وهو المساجِدُ.

قال السعدي: هو عائدٌ على جميعِ المعابِدِ المذكورةِ: (الصَّوامِعُ، والبِيَعُ، والصَّلواتُ، والمساجِدُ).

قال السعدي: فلولا مُدافَعةُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهم ببَعضٍ بأسبابٍ مُتعدِّدةٍ، وطُرُقٍ مُتنَوِّعةٍ قَدَريَّةٍ وشَرعيَّةٍ، وأعظَمُها وأجَلُّها وأزكاها الجِهادُ في سَبيلِه- لاستولى الكُفَّارُ الظَّالِمون، ومَحَقوا أديانَ الرُّسُلِ، فقَتَلوا المؤمِنينَ بهم، وهَدَّموا مَعابِدَهم، ولكِنَّ ألطافَ اللهِ عظيمةٌ، وأياديَه جَسيمةٌ، وبهذا وشِبْهِه يُعرَفُ حِكمةُ الجِهادِ الدِّينيِّ، وأنَّه مِن الضَّروريَّاتِ، لا كقِتالِ الظَّلَمةِ المبنيِّ على العَداواتِ والجَشَعِ، والظُّلمِ والاستِعبادِ للخَلْقِ، بل الجِهادُ الإسلاميُّ مَرماه وغَرَضُه الوحيدُ إقامةُ العَدلِ، وحُصولُ الرَّحمةِ، واستِعبادُ الخَلقِ لخالِقِهم، وأداءُ الحُقوقِ كُلِّها، ونَصرُ المظلومينَ، وقَمعُ الظَّالِمين، ونَشرُ الصَّلاحِ والإصلاحِ المطلَقِ بكُلِّ وَجهٍ واعتِبارٍ، وهو مِن أعظَمِ محاسِنِ دينِ الإسلامِ.

قال الأنصاري: أو المرادُ لهُدِّمتْ صوامعُ وبِيعٌ في زَمَن عيسى عليه السَّلام، وكَنائِسُ في زمَن موسى عليه السَّلام، ومَساجِدُ في زَمنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فالامتنانُ على أهلِ الأديانِ الثلاثةِ، لا على المؤمنين خاصَّةً.

لم يَذكُرْ بُيوتَ الشِّركِ، كبُيوتِ الأصنامِ والمشاهِدِ، ولا ذكَرَ بُيوتَ النَّارِ؛ لأنَّ الصَّوامِعَ والبِيَعَ لأهلِ الكتابِ، فالممدوحُ من ذلك ما كان مبنيًّا قبل النَّسخِ والتَّبديلِ، كما أثنى على اليَهودِ والنَّصارى والصَّابِئينَ الذين كانوا قبْلَ النَّسخِ والتَّبديلِ يُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ويَعمَلونَ صالِحًا، بخلافِ بُيوتِ الأصنامِ وبُيوتِ النَّارِ، وبُيوتِ الصَّابئةِ المشرِكينَ. الدرر السنية

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ) أي: ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يجاهِدُ في سَبيلِه؛ لِتَكونَ كَلِمتُه هي العُليا. موسوعة التفسير

وقال الشِّنقيطيُّ: (بيَّن اللهُ جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه أقسَمَ ليَنصُرَنَّ مَن يَنصُرُه، ومعلومٌ أنَّ نَصْرَ اللهِ إنَّما هو باتِّباعِ ما شرَعه؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، ونُصرةِ رُسُلِه وأتْباعِهم، ونُصرةِ دينِه، وجِهادِ أعدائِه وقَهرِهم؛ حتى تكونَ كَلِمتُه جلَّ وعلا هي العُليا، وكلمةُ أعدائِه هي السُّفلى).

كما قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [محمد: 7]

(إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) أي: إنَّ اللهَ لقَوِيٌّ كاملُ القوةِ، عزيزٌ منيعٌ، غالبٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ، ومَن كان القويُّ العزيزُ ناصِرَه، فهو المنصورُ ولو كان هو الأضعَفَ، وعَدُوُّه هو المقهورُ ولو كان هو الأقوى. موسوعة التفسير

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾﴿41﴾

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ) أي: الذين إنْ وَطَّنَّا لهم في البلادِ فقَهَروا المشرِكينَ، وصارت لهم السُّلطةُ والغَلَبةُ والمُلْكُ، أقاموا الصَّلاةَ بحُدودِها وأركانِها وشُروطِها وواجباتِها، وأعطَوا زَكاةَ الأموالِ لِمُستَحقِّيها. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (قال الضحَّاكُ: هو شَرطٌ شَرَطه اللهُ عَزَّ وجَلَّ على مَن آتاه المُلْكَ. وهذا حَسَنٌ).

(وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) أي: وأمَروا النَّاسَ بالإيمانِ وتَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، ونَهَوهم عن الكُفرِ والشِّركِ به ومَعصِيتِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وهذا يَشمَلُ كُلَّ معروفٍ حُسنُه شَرعًا وعَقلًا مِن حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ الآدميِّينَ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ كُلِّ مُنكَرٍ شَرعًا وعَقلًا مَعروفٍ قُبحُه، والأمرُ بالشَّيءِ والنَّهيُ عنه يدخُلُ فيه ما لا يَتِمُّ إلَّا به؛ فإذا كان المعروفُ والمنكَرُ يتوقَّفُ على تعلُّمٍ وتعليمٍ أجبَروا النَّاسَ على التعلُّمِ والتَّعليمِ، وإذا كان يَتوقَّفُ على تأديبٍ مُقدَّرٍ شَرعًا أو غيرِ مُقدَّرٍ -كأنواعِ التَّعزيرِ- قاموا بذلك، وإذا كان يَتوقَّفُ على جَعْلِ أُناسٍ مُتصدِّين له لزِمَ ذلك، ونحوُ ذلك ممَّا لا يتمُّ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ إلَّا به).

قال القصاب: دَليلٌ على وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ؛ لأنَّ نُصرةَ اللهِ -لا محالةَ- نُصرةُ دينِه؛ إذ هو جلَّ وتعالى قَوِيٌّ عزيزٌ -كما قال- لا يُرامُ، فإنَّما الواجِبُ على أهل دينِه نُصرةُ دينِه الذي شرعَه لهم، ولا وصولَ إليه إلَّا بإيجابِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ.

(وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ أمورُ الخَلقِ، وتَصيرُ إليه سُبحانَه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ....) [آل عمران: 109 – 110].

إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَضَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَجَعَلَهَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَجَعَلَ الْخَيْرَ بَاقِياً فِيهَا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهِيَ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ فِي أَوَّلِهَا وآخِرِهَا، وَإِنَّ أَهَمَّ أَسْبَابِ خَيْرِيَّتِهَا وَقُوَّتِهَا هُوَ أَمْرُهَا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهَا عَنِ الْمُنْكَرِ؛ إِذْ هُوَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ الَّذِي يَضْمَنُ أَنَّ الْأُمَّةَ سَتَأْخُذُ عَلَى يَدِ سُفَهَائِهَا وَمُفْسِدِيهَا؛ قَالَ جَلَّ وعَلا: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

حَذَّرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ تَرْكِ الأَمرِ بالمعرُوفِ؛ فقدْ رَوَى الإمامُ التِّرمِذِيُّ مِن حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ رِضي اللهُ عنهُما أنَّ النَّبِيَّ -ﷺ- قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ».

كَمْ مِنَ الْأُمَمِ لُعِنَتْ وأُهْلِكَتْ بِسَبَبِ تَرْكِهَا لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: 78، 79] لَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْ بَنِي إسرَائِيلَ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يا هَذَا اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّه لَا يَحِلُ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ وَهُوَ عَلَى حالِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوب بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ.

وذَكَرَ الإمامُ ابنُ أبي الدُّنيَا عَن إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَمْرٍو الصَّنْعَانِيّ، قَالَ: "أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى يُوشَعَ بْنِ نُونٍ أَنِّي مُهْلِكٌ مِنْ قَوْمِكَ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ خِيَارِهِمْ، وَسِتِّينَ أَلْفًا مِنْ شِرَارِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ الْأَشْرَارُ، مَا بَالُ الْأَخْيَارِ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ لَمْ يَغْضَبُوا لِغَضَبِي، وَكَانُوا يُؤَاكِلُونَهُمْ وَيُشَارِبُونَهُمْ"، وَذَكَرَ أَيضًا عَنْ مِسْعَرٍ، قَالَ: "بَلَغَنِي، أَنَّ مَلَكًا، أُمِرَ أَنْ يَخْسِفَ بِقَرْيَةٍ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، فِيهَا فُلَانٌ الْعَابِدُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ بِهِ فَابْدَأْ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَمَعَّرْ وَجْهُهُ فِيَّ سَاعَةً قَطُّ".

ولَقَد أَنكَرَ اللهُ سُبحانَهُ على أَهْلِ العِلمِ والفَضلِ عَدَمِ إنكَارِهِمْ علَى أَهلِ المنكَرِ فقَالَ: ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: 63] قالَ القُرطُبِيُّ رحمهُ اللهُ: وَبَّخَ سُبحانَهُ وتعالى عُلَمَاءَهُمْ فِي تَرْكِهِمْ نَهْيَهُمْ فقالَ: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾، كَمَا وَبَّخَ مَنْ يُسَارِعُ فِي الْإِثْمِ بِقَوْلِهِ: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، وقال: "وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ تَارِكَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كَمُرْتَكِبِ الْمُنْكَرِ، فَالْآيَةُ تَوْبِيخٌ لِلْعُلَمَاءِ فِي تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ".. ولاَ حَولَ ولاَ قُوةَ إلاَّ باللهِ.

إنَّ الدَّافِعَ لِلإِنْكارِ هُوَ الْغَضَبُ للهِ عَلَى انْتِهاكِ مَحَارِمِهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالرَّحْمَةُ لَهُمْ، وَرَجاءُ إنْقَاذِهِمْ مِمَّا أَوْقَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهِ مِنَ التَّعَرُّضِ لِغَضَبِ اللهِ وَعُقُوبَتِهِ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَة، وَالدَّافِعُ أَيضًا يَنبغِي أَن يَكُونَ: إِجْلال اللّهِ وإِعظَامُهُ وَمَحَبَّتُهُ وَأَنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَيُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي هَذَا هَانَ عَلَيه مَا يَلْقَى مِنَ الآلاَمِ؛ لِكَوْنِ ذَلِكَ فِي اللهِ.

إنَّ أَهلَ الحَقِّ لَو سَكَتوُا ونَطق المبطِلُونَ لنَشَأَ جِيلٌ لا يَعرِفُونَ إلاَّ بَاطِلاً شَاهَدُوهُ، ولأَنكَرُوا حَقًّا ومَعرُوفًا لأَنَّهُم لَم يُعايِنُوهُ، فمتَى رَامَ الآمرُ بالمعروفِ إحياءَ سُنَّةٍ أَنكرهَا النَّاسُ وَظَنُّوهَا بِدعةً، فالبِدعَةُ صَارتْ مَأْلُوفةً، والسُّننُ مُنكرةً غيرَ مَعروفَةٍ، فيحتاجُ الآمِرُ النَّاهِي إلى مَزِيدِ صَبرٍ وتَسلِيمٍ، واستعانةٍ بالعزيزِ الحليمِ.

وصدقَ الشَّيخُ عَبدُاللهِ بنُ حُمَيدٍ رَحمهُ اللهُ حِينَ نَصحَ فقَالَ: "وَلَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى حَدٍّ مَاتَتْ فِيهِ الْغَيْرَةُ الدِّينِيَّةُ عِنْدَ كُلِّ أحَدٍ، حَتَّى مَنْ يُرْجَى وَيُظَنُّ أَنَّهُمْ حُمَاةُ الْإِسْلامِ، وَأبطالُ الدِّين، مِمَّا جَعَلَ الْعُصَاةَ يَمْرَحُونَ فِي مَيَادِينِ شَهَوَاتِهِمْ، وَيَفْتَخِرُونَ بِعِصْيَانِهِمْ، بِدونِ حَسِيبٍ وَلاَ رَقِيبٍ؛ وَلَوْ شِئْتَ لَقُلْتَ نَحْنُ فِي زَمَنٍ عَلا فِيهِ وَاعْتَزَّ أَرْبَابُ الرَّذَائِلِ.(خطبة عن النهي عن المنكر د. سعود بن غندور الميموني)

قال -ﷺ-: "لَم تَظْهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قَطُّ؛ حتى يُعْلِنُوا بها؛ إلا فَشَا فيهِمُ الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تَكُنْ مَضَتْ في أسلافِهِم الذين مَضَوْا". صحيح الجامع

قال -ﷺ-: " وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، ولتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، ولَتَأْطُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، ولَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ" رواه أَبُو داود والترمذي.

فالواجب على المؤمن أن ينكر بيده مع القدرة، ثم اللسان، ثم القلب، قال-ﷺ-: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ» أخرجه مسلم، وجَبَ على كلِّ مُؤمنٍ مُستَطيعٍ أن يُجاهِدَهم بما يُناسِبُ حالَه، شَرطِ وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكَرِ أمرَينِ: أحدُهُما: العِلمُ بكَونِ ذلك الفِعلِ معروفًا أو مُنكَرًا؛ لأنَّ ذلك لا يَتأتَّى للجاهِلِ. والثَّاني: القُدرةُ عَليهِ، وأنَّ غَيرَ المستَطيعِ لا يَجِبُ عَليهِ، وإنَّما عَليه أن يُنكِرَ بقَلبِه. الدرر السنية

بالأمر بالمعروف يحصل الخير الكثير: ينقمع أهل المعاصي والفساد، وتظهر هيبة المسلمين حتى في قلوب الأعداء، ويحصل الأمن والاستقرار، وحصول البركات والخيرات، أما إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسنرى المنكرات بأعيننا، ونلمسها بحواسنا، ونفقد القوة والأمن والاستقرار، ويطأنا الأعداء بالأقدام، وتحل اللعنة وترسل الرحمة ويصيبنا العذاب؛ فلا دعاء مستجاب عند ذلك.

قال ابن عاشور: فيه التَّنبيهُ على الشُّكرِ على نِعمةِ النَّصرِ، بأن يأتُوا بما أمَرَ اللهُ به مِن أصولِ الإسلامِ؛ فإنَّ بذلك دوامَ نَصرِهم، وانتِظامَ عَقدِ جماعتِهم، والسَّلامةَ مِن اختلالِ أمرِهم، فإن حادُوا عن ذلك فقد فرَّطوا في ضَمانِ نَصرِهم، وأمْرُهم إلى اللهِ؛ فأمَّا إقامةُ الصَّلاةِ فلِدَلالتِها على القيامِ بالدِّينِ وتجديدٍ لِمَفعولِه في النفوسِ، وأمَّا إيتاءُ الزَّكاةِ فليَكونَ أفرادُ الأمَّةِ مُتقاربينَ في نظامِ مَعاشِهم، وأمَّا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ فلِتَنفيذِ قوانينِ الإسلامِ بين سائِرِ الأمَّةِ مِن تلقاءِ أنفُسِهم.

قال ابن عثيمين: بيانُ شُروطِ النَّصرِ وأسبابِه، فإذا تمَّت هذه الأسبابُ حَصَل النَّصرُ، أمَّا إذا تخَلَّف واحِدٌ منها فإنَّه يَفوتُ النَّصرُ بقَدرِ ما تخَلَّفَ.

وقد جعل الله للنَّصر أسباباً، إن أخذ بها المسلمون نصرَهم الله على أعدائهم الكافرين، وهذه الأسباب:

1- الإيمان: وهذا أعظم أسباب النصر، قال الله سبحانه: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]

2- العمل الصالح: وهو الذي اجتمع فيه شرطان: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله -ﷺ-.

قال الله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: 55]

3- تقوى الله: وهي امتثال الواجبات واجتناب المحرَّمات، وكمال التقوى يحصل بامتثال المستحبات واجتناب المكروهات والتورُّع عن الشبهات، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]، وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194] أي: معهم بالنصر والتأييد.

4- الإكثار من ذكر الله ودعائه: قال الله - تعالى -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]، وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9].

5- اجتماع الكلمة على كتاب الله وسنة رسول الله -ﷺ-، وعدم التنازع والتفرّق: قال سبحانه: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: 103]، وحبل الله هو كتابه، والاعتصام به يلزم منه اتّباع سنة رسول الله -ﷺ- ؛ إذ إن الله أمر باتّباع السُّنة في كتابه، فقال سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: 46]، ومعنى ريحكم: أي: نصركم وقوَّتكم ودولتكم، ولا يمكن اجتماع الكلمة على الكتاب والسنة إلا بتعلُّم الكتاب والسنة والحرص على العمل بهذا العلم النافع، وعند ذلك تجتمع الكلمة على الحق وتزول الفرقة، ولكن لا بد من الإنصاف وسعة الصدر في مسائل الاجتهاد.

6- موالاة المؤمنين والبراءة من الظالمين: قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 56]، وقال سبحانه: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113]، فلا بد من الولاء والبراء، والميزان هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13].

7- نصرة الله: وذلك بإقامة شرعه على النفس والأهل وعلى القريب والبعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كُلٌّ بقدر ما يستطيع، قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: 7]، وقال: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [الحج: 40 - 41].

8- التضحية بالأنفس والأموال والأوقات والمناصب وغير ذلك من أجل الإيمان والجهاد في سبيل الله: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 111]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

﴾ [التوبة: 24]، وقال سبحانه: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ [النساء: 74]، أي: يبيعون الحياة الدنيا وما فيها من متاع الغرور بالآخرة الباقية: ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: 17].

9- إعداد ما يُستطاع من قوّة: قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾ [الأنفال: 60]، كلمة " قوة " نكرة تشمل كل قوة نستطيع أن نعدَّها للكافرين، ولم يكلِّفنا الله أن نُعِدَّ لهم شيئاً فوق طاقتنا بل نُعِدّ ما في وِسعنا، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 126].

10- الصبر: قال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]، وقال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: 65]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

11- التوكل على الله: وهو اعتماد القلب على الله وحده في جلب المنافع ودفع المضار الدينيَّة أو الدنيوية مع الأخذ بالأسباب الشرعية، قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160].

12- القتال تحت راية واحدة بقيادة واحدة: قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

فهذه أسباب للنصر مذكورة في كتاب الله، فإن أخذنا بها فسينصرنا الله ولن يخلف الله وعده، وإن تولَّينا فسينصر الله دينه بغيرنا، قال الله عز وجل: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: 38]، ولن يصلح الله آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، قال -ﷺ-: " صلاحُ أوَّلِ هذه الأُمَّةِ بِالزُّهدِ واليَقينِ، ويَهْلَكُ آخِرُها بِالبُخْلِ والأَمَلِ "صحيح الجامع.

أسباب النصر: محمد بن علي بن جميل المطري